الفصل الأول

هدي النبي ﷺ في التفكر في الجنة والنار

فإن النبي ﷺ قد حرص أشدّ الحرص من خلال هديه قولاً وفعلاً على ترسيخ أهمية دوام ذكر الجنة والنار، والمتأمّل لسنته ﷺ بعيني قلبه يجد ذلك واضحاً جلياً، فيراه حريصاً على ذكر الجنة والنار كل ليلة قبل نومه، قالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ سورة الزمر» (السلسلة الصحيحة: ٦٤١)، وفيها قوله عز وجل: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ (الزمر: ٧١)، وقوله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ (الزمر: ٧٣)، وقال جابر: «كان ﷺ لا ينام حتى يقرأ: (آلم تنزيل) السجدة و(تبارك الذي بيده الملك)» (السلسلة الصحيحة: ٥٨٥)، وفيها ذكرٌ كثير للجنة والنار، ويراه كذلك حريصاً على التفكر في شأن الجنة والنار عند استيقاظه من نومه، فقد بات عنده ابن عباس ليلةً فلمّا استيقظ قرأ آخر آيات سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي

مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ (١٩٦) مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (١٩٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٩٠ - ٢٠٠) - كما في الصحيح - بل ورد عنه أنه كان يقرأ هذه الآيات كل ليلة ولكن سنده ضعيف - كما قال ابن كثير، ويراه كذلك حريصاً على ذكر ذلك في كل صلاةٍ يصليها سواءٌ كانت فرضاً أو نفلاً، بل قد أمر كل مصلٍّ بذلك، فعن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر، فليستعذ بالله من أربع؛ يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال» (رواه مسلم والنسائي)، بل جعل أدعية لصلاة كلها تدور حول ذلك، فقد قال لرجلٍ ما تقول في الصلاة؟ فقال: أتشهد ثمّ أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال ﷺ: «حولها ندندن» (رواه أبو داود وابن ماجة وصححه الألباني)، ويجده حريصاً في المجامع والمحافل على تذكير الناس بالجنة والنار، فقد كان يقرأ في الجمعة بالأعلى والغاشية (رواه مسلم)، وأحياناً بالجمعة والمنافقون (رواه مسلم)، وكان يصلي في العيدين بالأعلى والغاشية (رواه مسلم)، وأحياناً بـ ق والقمر (رواه مسلم)، ويجده حريصاً في كل أسبوع في صلاة فجر يوم الجمعة على تذكير الناس بالجنة والنار، فقد كان يقرأ «بألم السجدة والإنسان في فجر كل جمعة» (رواه البخاري ومسلم).

بل يجد حرص النبي ﷺ لنفسه وللمؤمنين معه على دوام تذكر الجنة والنار في كل الصلوات سواء السرية أو الجهرية، فقد كان يقرأ ـ في معظم أحيانه ـ في صلواته بالمفصل الذي هو أكثر أحزاب القرءان اشتمالاً على آيات الجنة والنار، ففي الفجر كان يقرأ فيها بطوال المفصل (رواه النسائي وأحمد وصححه الألباني)، وربما قرأ فيها بالواقعة (رواه أحمد وابن خزيمة وصححه الألباني)، وربما بالطور (رواه البخاري ومسلم)، وربما بـ ق (رواه مسلم)، وربما بقصار المفصل كـ «إذا الشمس كورت» (رواه مسلم)، وقرأ مرةً بـ «إذا زلزلت الأرض» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، وفي الظهر (وكذا في العصر قاله الألباني) ربما قرأ بـ «إذا السماء انشقت» (رواه ابن خزيمة وصححه الألباني)، وربما قرأ بـ الطارق، و«السماء ذات البروج»، و«الليل إذا يغشى» (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني)، وفي المغرب يقرأ أحياناً بقصار المفصل (رواه البخاري ومسلم)، وأحياناً بطوال المفصل وأوساطه كسورة «محمد» (رواه ابن خزيمة والطبراني وصححه الألباني)، وأحياناً بالطور وأحياناً بالمرسلات (رواه البخاري ومسلم)، وفي العشاء يقرأ من وسط المفصل (رواه أحمد والنسائي)، وكان يقرأ فيها بالشمس وضحاها (رواه أحمد والترمذي وحسنه)، وتارة بـ «إذا السماء انشقت» (رواه البخاري ومسلم)، وكان يقرأ في هذه الصلوات بغيرها أيضاً ولكن أكثر قراءته كانت لحزب المفصل، وهذه السور التي ذكرناها مليئة بذكر الجنة والنار، فعلى الدعاة والأئمة والوعاظ أن يكثروا من قراءة هذه السور ومن التركيز على حزب المفصل كما كان يفعل ﷺ. بل كان ﷺ يكثر من قراءة السور المليئة بذكر الجنة والنار على الدوام حتى شاب، ففي الحديث: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» (السلسلة الصحيحة: ٩٥٥). ويجد حرصه كذلك على أن يكون ذكر الجنة والنار ديدن كل مسلم على الدوام:

ـ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار» (رواه الترمذي والنسائي) (انظر صحيح الجامع، ح ٦٢٨٠).

وعن أنس رضي الله عنه أيضاً قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» (رواه البخاري).

وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم منه ﷺ ذلك فراحوا ينشرون في الناس هذا الهدي؛ يقول د. خالد أبو شادي معلقاً على حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً قال ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال». فهذه خمس مرات يومياً على الأقل يذكر فيها المسلم جهنم ويتعوذ منها جعلها الله فريضة يذكرها المرء إجبارياً، فلا مجال للنسيان أو الانشغال وعندما تنتهي صلاتك فلا تفعل جوارحك ما يوردك ما تعوذ منه لسانك منذ لحظات، وإلا كنت ...!! كنت ماذا؟! بل حرص النبي ﷺ على أن يُعَلِمْ أصحابه هذا الدعاء ويُحَفظهم إياه كأنه سورة من القرءان!! فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ «كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرءان، قولوا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات». وورث أبو هريرة رضي الله عنه المهمة واستمر في أداء الرسالة قائماً بها على أكمل وجه وذلك بطريقة مبتكرة وصيحة متكررة، فكان له صيحتان كل يوم: أول النهار وآخره، يقول: ذهب الليل وجاء النهار، وعرض آل فرعون على النار، فلا يسمعه أحد إلا استعاذ بالله من النار. يا من يطمع في العتق من النار ثم يمنع نفسه الرحمة بالإصرار على كبائر الآثام والأوزار. استعذ بالله من النار» أ. هـ.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا كان في سفر فأسحر يقول: سمع سامع بحمد الله وحسن بلائه علينا، ربنا صاحبنا وأفضل علينا، عائذاً بالله من النار».

قلتُ: وكيف لا يكون هذا هو هديهم، وقد جعل الله ما في الدنيا مذكراً بالجنّة والنار!! قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ (الواقعة: ٧١ - ٧٣).

وقال ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها وقالت: أكل بعضي بعضاً، فجعل لها نفسين: نفساً في الشتاء ونفساً في الصيف، فأما نفسها في الشتاء فزمهرير، وأما نفسها في الصيف فسموم» (السلسلة الصحيحة: ١٤٥٧)، وفي رواية: «فأشد ما تجدون في الشتاء من البرد فمن زمهريرها، وأشد ما تجدون في الصيف من الحرّ فمن سمومها»، وكان أبو الدرداء يقول: «نِعْم البيت الحمام يُذهب الوسخ ويذكِّر النار» (رواه البيهقي في السنن الكبرى).

وكان كثيرٌ من السلف إذا مرّ بالحدادين استعاذ بالله من النار، وإذا مرّ بسوق الرياحين (أماكن تباع فيها العطور الطيبة الرائحة ـ والله أعلم ـ) سأل اللهَ الجنّة.